أنطونيوس الكبير

منشورات النور
١٩٨٣

سيرة
أبينا البار أنطونيوس

كتبها أبونا القديس أثناسيوس أسقف
الإسكندرية
أرسلها الى الرهبان الذين في البلاد الاجنبية

نقل هذه السيرة الأب ميشال نجم عن اليونانية القديمة وقد صدرت الطبعة الأولى منها عن منشورات معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي في البلمند، في كتاب «سيرة القديس انطونيوس الكبير». ولقد اعاد الأب نجم النظر في ترجمته الأولى ونقحها من اجل هذه الطبعة الثانية. وصدر عن منشورات النور من اعمال الأب ميشال نجم في الترجمة كتاب « المسيح في الأناجيل » من تأليف ف . كيزيتزش .

تمهيـــد[1]

انكم شرعتم في منافسة رهبـان مصر منافسـة شريفـة ، لأنكم قررتم أن تماثلوهم أو أن تتفوقوا عليهم في ممارستكم الفضيلة . وها ان لديكم أديراً وتعيشون حياة الرهبـان . والمرء يقدر ان يمدح حقاً هذه الرغبة ، عسى أن يتممها الله بصلواتكم . لكن بما أنكم طلبتم مني أن أكتـب لكم عن حياة المغبوط أنطونيوس، و ملؤكم الرغبة في ان تعرفوا كيف بدأ نسكه، ومن كان قبل ذلك، وكيف كانت نهاية حياته، وهـل أن كلّ ما يُروى عنـه صحيح ، وذلك لكي تقتـدوا بغيرته ، قبلت برغبة قوية وصيتـكم ، لأنّ ربحـي كبـير ، حتى عندما أذكر اسمه فقط . أعلم أنكم إذا سمعتم سيرة

١ ـ نجد في نص إفاغريوس هذه التحيّة: أثناسيوس الاسقف الى الاخوة في البلاد الاجنبية.

حياته لن تعجبوا بالرجل فحسب ، بل سترغبون في الإقتداء بعزمه ، فحياة أنطونيوس بالنسبة للرهبان نموذج كاف للنسك . ففي الأمور التي سمعتموها ممن أخبركم عنه لا تشكّوا ، بل صدقوا أنكم سمعتم القليل عنه . فأولئك بالجهد أخبروكم هذا المقدار . أمّا أنا فبحثكم لي ، أرسل لكم كل ما سأدوّنه في رسالتي ، مورداً القليل عن حياته . لكن لا تتوقفوا عن سؤال المبحرين إلى هناك . فإذا أورد المرء كل ما يعرفه عنه ، يستطيع جاهداً أن يكمل سيرته كما ينبغي . عندما تلقيت رسالتكم ، حرصت على استدعاء بعض الرهبان الذين اعتادوا زيارته بشكل متواتر ، حتى أتعلم منهم أموراً أكثر ، فأرسل لكم معلومات أوفر . لكن بما أن وقت إبحار السفن قد أوشك أن ينتهي ، وحامل الرسالة مسرع في الذهاب ، كتبت إلى ورعكم كل ما أعرفه « لأنني رأيته مراراً » وكل ما استطعت أن أعرفه منه ، لأنني لازمته وقتاً طويلا ، وسكبت في يديه ماء ، كما اعتنيت بأن تكون كل الأمور حقيقية . إذا ما سمع أحدكم شيئاً أكثر فلا يشكّ في الرجل ، أمّا إذا سمع أقل ، فعليه ألاّ يحتقره.

ميلاده ونشأته

١ ـ كان أنطونيوس مصريّ النسب ، وكان أهله من أعيان البلد ، وذوي ممتلكات عديدة. وكانوا مسيحيين فتربّى تربية مسيحية . ونشأ عند والديه دون أن يعرف غيرهما ، و دون أن يعرف ما هو خارج البيت. وعندما شبّ وتقدم في السن رغب عن تحصيل العلم ، لأنه أراد أن يتجنب معاشرة الآخرين . وكان مراده أن يقيم في البيت كإنسان بسيط ، كما كُتب عن يعقوب[1]، غير أنه كان يرافق أهله في ذهابهم إلى الكنيسة . فلم يتهاون وهو صبيّ في الذهاب إلى الكنيسة ، كما أنّه لم يزدر بهذا عند بلوغه ، بل كان مطيعاً لوالديه يصغي إلى كل ما يُقْرأ حافظا في قلبه الفائدة التي تأتيه منه . ورغم الثروة الكافية فإنه لم يزعج أهله بطلب المأكولات الفاخرة والمتعددة ، ولم يكن يسعى إلى اللذات التي تأتي منها ، بل يكتفي بما يجده ولا يطلب المزيد .

٢ ـ بقي أنطونيوس وحيداً مع أخته الصغيرة جداً بعد موت أبويه. وكان عمره آنذاك ثماني عشرة سنة تقريباً أو أنه كان بلغ العشرين. فاهتم بالبيت وبأخته. وما ان مضت ستة أشهر على موت والديه وبينما كان ذاهباً الى الكنيسة

١ ـ «كان يعقوب رجلاً مسالماً» او كاملاً «يلزم الخيام» (تك ٢٥ : ٢٧).

حسب عادته أخذ يفكر كيف ترك الرسل كل شيء وتبعوا المخلص وكيف كان مسيحيو أعمال الرسل يبيعون ممتلكاتهم ويلقون ثمنها عند أقدام الرسل ليوزعوها على الفقراء (أعمال ٤ : ٣٥)، و أي رجاء كان ينتظرهم في السماء. ثم دخل الكنيسة وهو يفكر في هذا، وصدف أن قُرىء الإنجيل فسمع السيد يقول للغني: «إن أردت أن تكون كاملا، فاذهب و بع كل ما تملكه و وزّع ثمنه على الفقراء فيكون لك كنز في السماوات، وتعال اتبعني» (متى ١٩ : ٢١). وكأن أنطونيوس حصل على نعمة من الله في تذكره القديسين، وكأن المقطع الإنجيلي قرىء له وحده، فللحال خرج من الكنّيسة، و وهب كل الممتلكات التي ورثها عن والديه (وكانت ثلاثمئة فدّان من الأرض الجيدة والكثيرة الخصب) إلى أبناء قريته، كي لا تزعجه وتزعج أخته. ثم باع الممتلكات المنقولة، فجمع من ثمنها مالا كافياً، ووزّعه على الفقراء، محتفظاً بالقليل لأخته.

دعوته الرهبانية وانتصاره على حرب الشيطان

٣ ـ عندما دخل الكنيسة ثانية وسمع في التلاوة الإنجيلية أن الرب يقول « لا يهمكم أمر الغد » (متى ٦ : ٣٤) لم يحتمل البقاء ، فخرج و وزّع الباقي على الفقراء،

ينبغي أن يصلّي في الخفية بلا انقطاع (أنظر متى ٦ : ٦ ، ١ تسا ٥ : ١٧) . وكان يصغي أيضاً إلى تلاوة الكتاب المقدس ، حتى لا يسقط شيء مما يقرأه على الأرض ، فيحفظه ليكون في ذاكرته بدل الكتاب المقدس .

٤ ـ أصبح محبوباً من الجميع ، لأنه روّض نفسه على الفضيلة . كان مخلصاً في طاعة النسّاك العظام الذين كان يزورهم ، وتعلّم ميزات الغيرة والنسك التي كان يتمتع بها كل منهم . فرأى في الواحد الفرح ، وفي الثاني الرغبة في الصلوات الطويلة . وفي هذا عرف التحرر من الغضب ، وفي ذاك الإحسان . وكان يوجّه انتباهه إلى من يسهر وإلى من يحب العلم . كما أعجب بمن يحمل نفسه على كثرة الصبر ، وبمن ينام على الأرض . فكان ينظر بانتباه إلى وداعة هذا ، وإلى طول أناة ذاك . لاحظ كذلك إيمانهم بالمسيح ومحبتهم لبعضهم البعض . فعاد إلى نسكه ممتلئاً ومجاهداً لجمع كل هذه الصفات في نفسه ولإظهارها في ذاته . ولم يحاول أن ينافس الرهبان الذين هم في مثل سنه ، سوى أنه لم يظهر أدنى منهم في اكتساب الفضائل . هو فعل هذا الأمر ، حتى لا يحزن أحداً منهم بل ليفرحوا لجهده هذا . ولمّا رآه أبناء قريته ومحبو الصلاح الذين كانوا يجتمعون به ، عائشاً بهذه الطريقة ، سمّوه حبيب الله . كما أن بعض

كامرأة مقلداً كل التصرفات النسائية، حتى يخدع أنطونيوس، أمّا هو فكان يفكر في المسيح، وفي نبله المسيحي، وفي روحانية النفس، فأخمد جمرة خداع الشيطان. ان العدو أشار إلى حلاوة اللذة، لكنّ ذلك امتلأ غضباً وحزناً وأخذ يفكر في تهديد النار وألم الدود مقاوماً هذه الأمور، وخارجاً منها بدون أذى. هذه كانت من أجل خزي العدو. فمن كان يظن بأنه سيصبح مشابهاً لله (أشعياء ١٤ : ١٤) يسخر منه الآن شاب، ومن افتخر على اللحم والدم يغلبه إنسان يحمل جسداً. فالرب كان يعمل معه، إذ لبس جسداً لأجلنا وأعطانا بجسده النصر على الشيطان، حتى أن كل من جاهد بقوة استطاع ان يقول : «ولا أنا، بل نعمة الله التي هي معي» (١ كور ١٥ : ١٠).

٦ ـ إذن ، عندما عجز التنّين (الشيطان) عن الإنتصار على أنطونيوس بهذه الطريقة ، بل وجد نفسه مطروداً من قلبه ، أخذ يصرّ بأسنانه ، كما كُتب[1]، وكأنه خرج عن طوره . فمثلما يوجد في الذهن ، هكذا ظهر له في الخيال كعبد أسود . ولكونه مخادعاً لم يعد يهجم عن طريق الأفكار الشريرة (لأن الغاش طرد) ، بل عن طريق صوت بشري

١ ـ أنظر ١ بط ٥ : ٨ ومر ٩ : ١٨ . النص هنا يشبه حرفياً مر ٩ : ١٨ إلاّ انه يشبه ١ بط ٥ : ٨ من حيث المعنى.

«حكم على الخطيئة في الجسد، ليتمّ ما تتطلبه منّا أحكام الشريعة، نحن السالكين سبيل الروح لا سبيل الجسد» (رومية ٨: ٣ - ٤). لكنّ أنطونيوس لم يظهر تكاسلا أو تراخياً، لأنه انتصر على الشيطان، كما أن الأخير لم يتوقف البتة عن نصب الفخاخ، لكونه قد هُزم، بل كان يلتفّ حوله كالأسد محاولا أن يجد علّة ضده. لكنّ أنطونيوس الذي تعلّم من الكتاب ان مكائد الشيطان كثيرة كان ينسك نسكاً قاسياً، لأنه كان يعتقد أن الشيطان إذا لم ينجح حتى الآن في أن يخدع قلبه بلذة جسدية، فسيحاول بوسائل أخرى أن ينصب له شركاً، لأن الشيطان صديق الخطيئة. لذلك كان يقسو على جسده ويستعبده أكثر فأكثر، خوفاً من أن يقع في خطيئة ما بينما انتصر في أخرى.

من هنا أراد أن يتعوّد النسك القاسي. وفي حين أن الكثيرين تعجبوا منه، فقد تحمّل التعب بسهولة، لأن نشاط نفسه قوّى في ذاته العادة الحسنة هذه، حتى انه إذا تلقى توجيهاً صغيراً من الآخرين، أظهر حماساً كبيراً له. كثيرا ما كان يقضي الليل ساهراً، ولم يفعل هذا لمرة واحدة، بل لمرّات عديدة، حتى أثار الإعجاب، وكان يأكل مرة واحدة في النهار بعد غروب الشمس، وتارة مرة كل يومين، وأحيانا كثيرة مرة كل أربعة أيام. وكان طعامه

خبزاً وملحاً وشرابه الماء وحده . ومن النافلة التكلم على اللحم والخمر ، لأن المرء لا يقدر أن يجدها عند النسّاك الآخرين العظام في تلك المنطقة .

كان يكتفي ببساط للنوم ، وفي أغلب الأحيان كان ينام على الأرض ، كما توقف عن مسح نفسه بالزيت (والمقصود به الصابون) قائلا انه ينبغي على النسّاك الجدد أن يرغبوا في ممارسة التقشف ، غير مستخدمين كل ما يجعل الجسد متكاسلا ، لكي يعتاد القسوة ، لأنه كان يفكر في قول الرسول : « لاني عندما أكون ضعيفاً أكون قوياً » (٢ كور ١٢ : ١٠) . لذلك كان يقول ان عزم النفس يقوى عندما تضعف ملذات الجسد . كان حقاً ذا ذهنية غريبة لأنه لم يكن يقيس تقدمه في الفضيلة ، ولا توحّده من أجل اقتنائها ، بل انه بالغيرة والقصد نسي الماضي وجاهد بقوة من أجل تقدمه الروحي ، حتى أنه كان يبدأ حياته النسكية من جديد كل يوم ، مذكّراً نفسه بقول الرسول : « أنا أنسى ما ورائي وأجاهد إلى الأمام » (فيليبي ٣ : ١٣) ، وموردا آية النبي إيليا القائل : « حي هو الرب الذي أنا حاضر أمامه اليوم » (٣ ملوك ١٨ : ١٥) . فلاحظ أن النبي بقوله « اليوم » لم يقس الزمن الماضي ، بل اجتهد ، وكأنه يبدأ كل يوم ، في أن يظهر ، كما ينبغي ، أمام الله طاهر القلب

ومستعداً لإطاعة مشيئته ، وليس لأي شخص آخر . وكان يقول في داخله ان الناسك الذي يستفيد من سيرة إيليا العظيم يجب أن ينظر دائماً إلى حياته كما في مرآة .

٨ ـ وإذ أراد التضييق على نفسه قصد القبور الموجودة بعيداً عن القرية . ولما طلب من أحد معارفه ان يجلب له خبزاً لأيام عديدة دخل أحد القبور ، فأغلق صاحبه الباب دونه وبقي في الداخل وحده . عندها لم يحتمل العدو هذا الشيء ، لأنه خاف من أن يملأ الصحراء شيئاً فشيئاً بنسكه . فدنا منه في إحدى الليالي مع جمهرة من الشياطين ، وجرّحه كثيراً حتى أنه سقط على الأرض لا يقوى على الكلام من شدة العذاب. و أنطونيوس نفسه أكّد أن الآلام كانت شديدة حتى ان ضربات الإنسان ، كما يقول ، لا تسبب ألماً لا يُحتمل كهذا . لكن بعناية إلهية ـ لأن الرب لا يتغاضى عن الذين يضعون رجاءهم عليه ـ أتى صاحبه في اليوم التالي جالباً له الخبز . وعندما فتح الباب رآه ملقى على الأرض كالميت ، فأخذه بيديه وحمله الى الكنيسة التي في القرية ، ووضعه على الأرض . فأتى كثير من أقاربه ومن أهل القرية فجلسوا بجواره ، وكأنهم بجوار ميت . لكنّ أنطونيوس عاد إلى وعيه في نصف الليل ، فرأى الجميع نياماً ، ما عدا صاحبه ، فأومأ إليه برأسه ليقترب منه ورجا منه أن يحمله على

يديه ويعيده إلى القبور دون أن يوقظ أحداً .

٩ ـ فحمله الرجل وأغلق الباب كالعادة ، ليبقى وحيداً في الداخل . لكنه لم يقو على الوقوف بسبب جراحاته ، فاستلقى على الأرض وأخذ يصلّي . ولما أنهى صلاته صرخ بقوة : أنا هو أنطونيوس أنا هنا . انني لن أهرب من جراحاتكم ، حتى لو أصبتموني أكثر « فلا شيء يفصلني عن محبة المسيح » (رومية ٨ : ٣٥) . ثم أخذ يرتل قائلا « ان اصطفّ عليّ عسكر ، فلن يخاف قلبي » (مزمور ٢٦ : ٣) . هذه هي الأمور التي قالها الناسك وآمن بها ، لكنّ كاره الصلاح اندهش من تجاسره على العودة إلى القبور بعد كل هذه الجراحات ، فجمع كلابه ـ الشياطين ـ وقال لهم بعد ان تمزق غضباً : انظروا اننا ما استطعنا ان نوقفه بروح الزنى أو بالضربات ، بل انه يتواقح علينا جداً ، فلنهجمنّ عليه بطريقة أخرى . وبما أنه يسهل على إبليس اتخاذ أشكال شريرة ، فقد أخذ يُحدث في الليل ضربات قوية ، إلى درجة تجعل الإنسان يظن أن المكان يتزلزل ، وبأنه ثقب حوائط البييت[1] الأربعة، فبدت وكأنها تدخل منها ، آخذة شكل الحيوانات المتوحشة والزحافات . فامتلأ

١ ـ بُيَيْت تصغير بيت.

البيت للحين بأشكال الأسود والدببة والنمور والثيران والأفاعي والأصلال والعقارب والذئاب ، وأخذ كل حيوان يتحرك وفق طبيعته . فالأسد بدأ بالزئير عليه مريداً الإنقضاض ، والثور بدا وكأنه يضربه بقرنه ، والأفعى بدأت زحفها ، لكنها لم تقترب منه ، والذئب حاول الهجوم عليه لكنه لم يفعل . فكان ضجيج الأشباح مخيفاً وغضبهم عنيفاً . لكن في الوقت الذي كان يُجلَد فيه أنطونيوس ويُنْخَس، شعر بألم جسدي أشد . إنه كان يضطجع بنفس ساهرة وغير مضطربة ، ويئن من الألم الجسدي ، لكنّ عقله كان صاحياً . قال وهو يهزأ بالشياطين : لو كنتم تملكون أية قوة يكفي أن يأتي حيوان واحد منكم ، لأن الربّ جعلكم عديمي القوة . لذلك حاولتم ان تخيفوني بجمهرتكم ، لكنّ علامة ضعفكم هي تقليد لأشكال الحيوانات غير الناطقة .

هنا تشجع أنطونيوس أكثر وقال : ان كنتم ذوي قدرة أو إن حصلتم على قوة ضدي ، فلا تتأخروا في الهجوم عليّ ، وإن كنتم لا تقدرون عليّ فلماذا تهتاجون عبثاً. فإن سوري وحصني بالسلامة هو إيماننا بالرب. وهكذا قامت الشياطين بمحاولات عديدة ضده صارفة بأسنانها ، لكنها كانت تضحك على نفسها وليس عليه .

١٠ ـ إلاّ أن الرب لمّ ينس صراع أنطونيوس ، فسارع إلى نجدته . ورفع أنطونيوس ناظريه إلى فوق فرأى السقف وكأنه ينفتح شيئاً فشيئاً ، ورأى شعاعاً من النور ينزل عليه . فجأة اختفت الشياطين وتوقف للحين ألم جسده وعاد البناء كاملا . وحينما أحسّ بالمساعدة تنفس الصعداء وتوجّه إلى المشاهدة الإلهية ، بعدما ارتاح من الآلام ، قائلا : أين كنت ؟ لماذا لم تظهر في البدء ، كيما تريحني من العذاب ؟ فأتاه صوت يقول له : كنت هنا يا أنطونيوس ، لكني كنت أنتظر جهادك . ولكن بما أنك صبرت على العذاب ولم تُهْزم ، فسأكون لك عوناً على الدوام ، وسأعمل كيما يكون اسمك معروفاً في كل مكان . ولما سمع هذا نال قوة حتى انه نهض وصلّى ، وأحسّ بأن جسده صار أشد قوة من ذي قبل . حدث هذا عندما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره .

١١ ـ في اليوم التالي خرج بزخم أقوى في اتقائه لله . وانطلق الى الشيخ القديم راجياً إياه ان يسكن معه في الصحراء . لكنّ الشيخ رفض بسبب سنه ، ولأن هذا كان غير مألوف في تلك الآونة . فانطلق في الحال الى الجبل . أما العدو فكان ينظر إلى غيرته وهو يحاول أن يقاومها ، فألقى في الطريق قرصاً فضياً كبيراً . لكنه أدرك حيلة كاره الخير ،

فنظر إلى القرص ووبّخ الشيطان الذي فيه وقال : كيف وُجد هذا القرص في الصحراء ؟ ان الطريق ليس مألوفاً ، ولا أثر فيه يشير إلى مرور أناس من هنا . كما أنه لو سقط لآثار الإنتباه ، لأنه كبير الحجم ، ولو رجع الذي أضاعه ليفتش عنه ، أما وجده ، لأن المكان مقفر. إذن إنه من حيل الشيطان. فلن تعيقني عن هذا الحماس أيها الشيطان ، «إلى الهلاك انت وما لك» (أعمال ٨ : ٢٠). وفيما يقول هذا اختفى القرص «كالدخان أمام النار» (مزمور ٦٧ : ٢).

١٢ ـ وعندما تقدم في الطريق رأى ذهباً حقيقياً ملقى على الطريق . لكنّ أنطونيوس لم يخبرنا ، ونحن لم نعلم ، إن كان العدو هو الذي أراه إياه أو انّ قوة أعظم أرادت ان تمتحن المجاهد ، وأن تظهر للشيطان انه لا يهتم بالمال ، إنما نعرف ان ما ظهر كان ذهباً . تعجب أنطونيوس من كمية الذهب ، لكنه عبر فوقها ، وكأنه يعبر فوق النار ، فلم يرجع رأسه إلى الخلف . بل أخذ بالركض بسرعة ، حتى يختفي المكان فينساه . ومن ثم وجد عبر النهر حصناً مهجوراً منذ زمن مليئاً بالزحافات . فعبر إليه وسكن فيه . وللحين هربت الزحافات ، بل قل أن أحداً طردها . فأقام حاجزاً على مدخله ، واختزن خبزاً لمدة ستة أشهر (كما كانت عادة

الطيبيين، الذين كثيراً ما حفظوا الخبز سليماً لمدة سنة كاملة). وبما ان الماء كان متوفراً داخله، لزمه متوغلا فيه، فمكث فيه دون أن يخرج لزيارة أحد و دون أن يرى أحداً من الذين كانوا يزورونه. وهكذا أمضى وقتاً طويلا، في نسكه، لكنه كان يقبل الخبز مرتين في السنة من السقف.

١٣ - لم يكن يسمح لمعارفه الذين كانوا يأتون لزيارته بالدخول، وفي كثير من الأحيان كانوا أثناء انتظارهم في الخارج ليل نهار يسمعون ضجيج جمهرة من الناس وكأنها تتضارب وتتصارخ يائسة وهي تقول: ابتعد عن أماكننا، ما علاقتك بالصحراء! فلن تستطيع احتمال مكيدتنا. وكان الذين في الخارج يظنون في البدء أن جماعة من الناس دخلت بواسطة السلالم، وأخذت في العراك معه. لكن عندما كانوا ينحنون وينظرون من ثقب الباب، كانوا لا يرون احداً ويدركون أنها الشياطين، فيخافون ويطلبون مساعدة أنطونيوس. بيد أن أنطونيوس كان يصغي إلى أصوات الزائرين، غير مكترث بالشياطين. بل كان يدنو من الباب ويرجوهم أن يرحلوا، حتى لا يخافوا وكان يقول لهم إن الشياطين تخلق رؤى للجبناء. لذلك ارسموا إشارة الصليب و اذهبوا بشجاعة و اتركوا هؤلاء يضحكون على أنفسهم. فكانوا يتحصّنون بإشارة الصليب ويرحلون.

أما هو فلم يمسه أذى ولـم يتـراخ في جهـاده ، إذ أن قوى الرؤى الإلهية وضعف الأعداء أراحـاه من الآلام وأعـطياه حماساً أشد . واعتاد معارفه أن يأتوا إليه وهم يظنون أنهـم سيجدونه ميتاً ، لكنهم كانوا يسمعونه وهو يرتل «ليقم الله ولتَتبدد أعداؤه . وليهرب مبغضوه من أمام وجهه. كما يتبدد الدخان يتبددون ، وكما يذوب الشمع أمام النـار ، يذوب الخطأة أمام وجه الله » (مزمور ٦٧ : ١ ـ ٢) . « أحدقت بي جميع الأمـم ، و باسـم الـرب قهرتهـا » (مزمـور ١١٨ : ١٠).

زيارة النسّاك الجدد له وتوحّدهم

١٤ ـ انقضت عشرون سنة دون أن يخرج أو أن يراه أحد باستمرار وهو ينسـك بمفـرده على هذا النحـو . بعـد هذه السنين ، لمّا رغب و أراد كثير من الناس أن يقلّدوا نسكه ، أتى معارفه وفتحوا الباب عنوة . فخرج أنطـونيوس وكأنـه يخرج من الهيكل وهو يحمل الله ويتلقن سرّه،فكانـت المرة الأولى التي يظهر فيها خارج الحصن . فتعجبوا منه ، لأنهم رأوا جسده في حالته المعتادة ، أي أنه لم يترهل كشخص لم يمارس رياضة بدنية ، ولم يضعف بسبب كثرة الأصـوام وصراعه مع الشيطان . انه هو نفسه كما عرفوه قبل اعتزاله

الطويل . فسجية نفسه كانت طاهرة . والأسى لم يتحكم به . عقله لم يتشتت قط من جراء أية لذة . ولم يكن عابساً ولا ضاحكاً . وحينما رأى الجمع لم يضطرب ، كما لم يفرح بمعانقة الكثيرين له . فكان عقله راجحاً وحالته طبيعية . كان هو نفسه دائماً . والرب شفى بواسطته أمراض عدد كبير من الحاضرين ، وطهّر آخرين من الشياطين . الرب أعطاه نعمة كبيرة في الكلام ، فعزّى كثيرين من الحزانى وصالح المتخاصمين . وفي نهاية حديثه قال لهم إنه ينبغي ألا نضع في العالم شيئاً أرفع من محبة المسيح . وكان يحدثهم حاثّاً إياهم على تذكر الخيرات الآتية ، والمحبة التي أظهرها الله للإنسان «الذي لم يبخل بابنه بل أسلمه إلى الموت من أجلنا جميعاً ، كيف لا يهبنا معه كل شيء » (رومية ٨ : ٣٢) . فأقنع الكثيرين باختيار حياة التوحد . وهكذا قامت الأديار على الجبال ، وتحوّلت الصحراء الى مدينة يقطنها الرهبان الذين خرجوا من تلقاء أنفسهم وكتبوا أسماءهم في الموطن السماوي .

١٥ ـ احتاج مرة إلى عبور قناة أرسينويتيس[1] (لأن زيارة الإخوة كانت ضرورية) وكانت مليئة بالتماسيح . فاكتفى

---

١ ـ تقع في منطقة الفيّوم اليوم.

بالصلاة ثم دخل المياه مع الذين كانوا معه عابرين القناة بدون ضرر . وعندما رجع الى الدير أكمل الجهاد الشريف والقوي . وفي حديثه مع الرهبان الجدد ملأهم حماساً وحثّهم على عشق النسك . وبجاذبية أقواله تأسست بسرعة أديار متعددة ، فكان هو يرشدهم كأب .

عرض خبرته للنسّاك

١٦ ـ خرج مرةً إلى الخارج فاقترب منه جميع الرهبان وطلبوا ان يسمعوا منه كلمة فقال لهم باللغة المصرية : الكتاب المقدس كاف للتعليم ، لكن من الحسن أن يشدّد الواحد الآخر في الإيمان ، و أن نطيّب النفس بالكلام الروحي . فيا أولادي احملوا الى أبيكم كل ما تعرفونه ، وأنا سأنقل لكم ما أعرفه من خبرتي ، لأنني أكبر منكم سناً . لتكن هذه الغيرة مشتركة عند الجميع ، ولا نفكرنّ في الرجوع إلى الحياة الدنيوية بعد أن بدأنا ، ولا نخضعنّ عقلنا للشر ، ولا نقل إننا عتقنا في الحياة النسكية ، بل ليزد حماسنا أكثر فأكثر ، وكأننا نبدأ كل يوم . حياة الإنسان قصيرة جداً إذا ما قيست بدهور الحياة الآتية ، بل إن كل حياتنا الأرضية لا تساوي شيئاً أمام تلك . كل ما في العالم نقايضه بشيء يساويه ، أما وعد الحياة الأبدية فيشترى بسعر قليل جداً .

لقد كُتب « أيام حياتنا سبعـون سنـة و إن كانت مع القـوة فثمانون ، ومعظمها كدّ وعناء » (مزمور ٨٩ : ١٠) ، أي إذا ثبتنا في النسـك لمدة ثمانـين أو مئـة سنـة ، فلن نتملّك (نصبح ملوكاً) لمئة سنة فقط ، بل إلى دهر الداهرين . وفي حين اننا نجاهد على الأرض ، فلن نرث ما عليها ، لأننـا سنحصل على الوعود في السماوات . وفي حين أننا نترك على الأرض جسداً ميتاً ، فسنحصل في السموات على جسد غير فاسد .

١٧ ـ يا أولادي ، يجب علينا ألا نفقد حماسنا ظانين اننا عتقنا في النسك ، أو أننا حققنا شيئاً عظيماً . « إن آلامنا في هذه الحياة لا توازي المجـد الـذي سيظهـر فينـا » (رومية ٨ : ١٨) . ويجب أيضاً ألا ننظر الى العالم وكأننا تركنا أموراً عظيمة . ان هذه الأرض صغيرة جداً إذا قيست بالسماء كلها . فلو اتفق ان كنّا أسياد الأرض ، ورفضنا كل شيء فيها ، فهذا لا يستحق مقارنته بأي شيء في ملـكوت السماوات . هذا النكران هو كمن يزدري درهماً نحاسياً ، حتى يربح مئة درهم ذهبي . فإذا كانـت الأرض كلهـا لا تساوي شيئاً بالنسبة إلى السماء ، فمن ترك بعض الحقـول يكون كمن لم يترك شيئاً . إذا ما تركتم بيتاً أو ذهباً كثيراً فلا

تفتخروا ولا تكتئبوا ، لأنه ينبغي أن ندرك انه إذا لم ننكر كل شيء من أجل الفضيلة ، فإننا سنتركها حتماً عند الموت وفي الأغلب لأناس لا نريدهم ، كما يذكر كاتب سفر الجامعة (أنظر الجامعة ٤ : ٨) . إذن ، لماذا لا ننكر كل هذه الأمور من أجل ان نرث الملكوت ؟ لا نظهرنّ رغبة في الحصول على النعم المادية ، إذ ما فائدة الحصول على أمور لن نستطيع أن نأخذها معنا ؟ فلماذا لا نقتني الأمور التي نستطيع أن نأخذها معنا وهي التعقل والبر والفطنة والرجولة والحصافة والمحبة والرحمة والإيمان بالمسيح واللاغضب ومحبة الغرباء ؟ ان اقتنيناها نجدها قبلنا هناك ، حيث ستهيء لنا ترحيباً في أرض الودعاء .

١٨ ـ على الواحد منّا أن يقنع نفسه بهذه الأفكار غير متراخ فيها ، وعلى الأخص إذا فكّر في انه عبد الرب وأن من واجبه خدمة السيد . فكما لا يجرؤ العبد على القول : إنني اشتغلت في الأمس فلن أشتغل اليوم ، بل انه لا يتوقف عن العمل ، إذ لا يحسب الأيام التي أشتغل فيها ، بل يظهر النشاط عينه (كما كتب في لوقا ١٧ : ٧ ـ ١٠) كي يعجب سيده ، وكي لا يعرّض حياته للخطر ، هكذا فلنثبت في نسكنا كل يوم عالمين بأننا إذا تهاونا يوماً واحداً ، فلن يسامحنا

الله من أجل ماضينا الحسن ، بل سيغضب علينا لتهاوننا . هذا ما سمعناه من النبي حزقيال (في الفصل ١٨) بأن يهوذا خسر في ليلة واحدة تعب الماضي .

١٩ ـ لننصرف إلى حياة النسك من دون تهامل ، لأن الرب يتداءب معنا ، كما كُتب : «ان كل الأشياء تعمل معاً لخير الذين يحبون الله » (رومية ٨ : ٢٨) . ولكي لا نقع في التهامل يحسن ان نعتبر بقول الرسول :« إنني أموت كل يوم » . إذا ما عشنا وكأننا نموت كل يوم فلن نخطأ . ومعنى هذا هو أننا عند نهوضنا من النوم في كل يوم فلنفكر في أننا لن نعيش حتى المساء ، وعند انطلاقنا الى النوم فلنفكر في أننا لن ننهض ، لأن حياتنا مجهولة بطبيعتها . فالعناية الإلهية هي التي توزّعها علينا . إذا سيطرت هذه المشاعر علينا وعشنا على هذا المنوال لن نخطأ ولن تعترينا رغبة شريرة ، ولن نغضب على أحد ، ولن نكنز كنوزاً على الأرض . فلنكن عادمي القنية ولنسامح الجميع بكل ما أساؤوا إلينا ، وكأننا نموت كل يوم . لا نُبقينّ في داخلنا شهوة امرأة أو أية لذة شريرة ، ولنبتعد عنها ، لأنها عابرة ولنجاهد ناظرين دائماً إلى يوم الدينونة ، لأن الخوف العظيم والصراع ضد التجارب يدمّران سهولة اللذة ، وينهضان النفس الساقطة .

٢٠ ـ بما أننا ابتدأنا بالسير ووطئنا الآن طريق الفضيلة ، فلنجاهد أكثر لنتقدم الى الأمام ، فلا يُرجع أحد منّا رأسه إلى الخلف كإمرأة لوط ، إذ أن الرب قال : « ما من أحد يضع يده على المحراث ويلتفت إلى الوراء ، يصلح لملكوت الله » (لوقا ٩ : ٦٢) . فإن إرجاع الرأس الى الخلف ما هو إلا تغيير في الرأي وتفكير دنيوي . لا تخافوا عندما تسمعون عن الفضيلة ، ولا يدهشكم اسمها ، لأنها ليست بعيدة منّا وليست خارج أنفسنا بل فينا . انها أمر سهل يكفي أن نريده . ان الهلينيين يسافرون ويعبرون البحر لتحصيل العلم ، لكننا نحن لا نحتاج الى السفر من أجل ملكوت السماوات ، ولا إلى عبور البحر من أجل الفضيلة ، لأن الرب سبق فقال : « ان ملكوت السماوات هو فيكم » (لوقا ١٧ : ٢١)

إذن ، ان الفضيلة تحتاج إلى إرادتنا فقط ، لأنها فينا ولأنها تثبت من خلالنا . وهي تُكْتَسب عندما يتوق الجزء الروحي من النفس بالطبيعة إليها . هذا التوق يتم عندما تبقى النفس كما خلقت جميلة ومستقيمة . لذلك قال يشوع بن نون الى الشعب في وصيته إليهم : «اجعلوا قلوبكم مستقيمة في طريق الرب إله اسرائيل » (يشوع ٢٤ : ٢٣) . ويوحنا قال : « اجعلوا سبله مستقيمة » (متى ٣ : ٣). ان روحانية

النفس هي من طبيعتها ، أي أن تكون مستقيمة كما خُلقت ، أما انحرافها فيعود إلى الفساد الحاصل في طبيعتها ، وهذا ما يسمّى بشرّ النفس . ليس الأمر عسيراً ، لأننا إذا بقينا كما خلقنا الرب فسنكون في الفضيلة ، أما إذا فكرنا في الشر ، فسندان كأشرار . ان اكتساب الفضيلة سيكون صعباً عندما نُضطر للبحث عنها خارج أنفسنا . أما إذا كانت فينا فلنحفظ أنفسنا من الأفكار الدنسة ، ولنضعها عند الرب وكأننا تسلمناها وديعة منه ، حتى يعرف هو خلقه وحتى تكون كما خلقها .

٢١ ـ فلنجاهد كي لا يطغى علينا الغضب ولا تتسلط علينا الشهوة ،لأنه كُتب: « ان غضب الإنسان لا يصنع بر الله » (يعقوب ١ : ٢٠) . « الشهوة إذا حبلت ولدت الخطيئة ، والخطيئة إذا نضجت ولدت الموت » (يعقوب ١ : ١٥) . فلنكن صاحين في سيرتنا ، حتى نحفظ أنفسنا بكل حرص (أنظر أمثال ٤ : ٢٣) ، لأن أعداءنا مرعبون وخدّاعون ، انهم الشياطين الأشرار ، وصراعنا هو ضدهم كما قال الرسول: «فنحن لا نحارب أعداء من لحم ودم، بل أصحاب الرئاسة والسلطان والسيادة على هذا العالم ، عالم الظلام : نحن نحارب الأرواح الشريرة في الجو » (أفسس

٦ : ١٢) . جمهرتهم كثيرة في الجو الذي يحيط بنا ، وهي ليست بعيدة عنا ، وأنواعهم متعددة أيضاً . فالكلام كثير على طبيعتهم وأنواعهم ، لكنه عمل من هم أرفع منّا، أمّا الشيء الضروري والملحُّ تعلمه فهو ان خداعهم موجّه ضدنا .

٢٢ ـ ينبغي أن نعرف أولا أن الشياطين لم يُخلقوا شياطين ، لأنهم يحملون هذا الإسم ، فالله لم يخلق أيّ شر . خلقهم الله صالحين ، لكنهم سقطوا وابتعدوا عن الحكمة الإلهية ، فأخذوا يدبّون على الأرض . ثم خدعوا الهلينيين بالخيالات ، والآن هم يحاولون خداعنا ، إذ يحسدون المسيحيين . انهم يريدون أن يعيقونا عن الإرتفاع الى السماوات ، لكي لا نرتفع إلى المكان الذي سقطوا منه . وهكذا نحتاج إلى الصلاة الكثيرة والنسك ، لكي نحصل من الروح القدس على موهبة تمييز الأرواح ، وعلى معرفة خصائصها : أي روح أقل شراً وأي روح أكثر شراً ؟ ما هو سعي كل واحد منها ؟ وكيف يُطْرد ويُهْزم ؟ فحبائلهم ووسائل هجومهم متعددة . ان الرسول المطوَّب وتلاميذه عرفوا حبائل الشيطان: «نحن لا نجهل أفكاره » (٢ كور ٢ : ١١) . يجب على كل واحد منّا أن يصلح الآخر وفقاً

لخبرته مع الشياطين . وأنا بما أنني أملك بعض الخبرة معهم فسأحدثكم عنها يا أولادي.

٢٣ ـ إذا ما رأى الشيطان ان المسيحيين عامة والرهبان خاصة يتقدمون روحياً ويحبون الجهاد يسعى إلى تجربتهم ناصباً لهم عثاراً في الطريق ، أي أفكاراً شريرة . فلا تخافوا من هجماتهم ، لأنهم يهزمون حالا بالصلوات والأصوام والإيمان بالرب . لكنهم لا يتوقفون عن الهجوم ، بل يقتربون بغش وخبث . فعندما لا يستطيعون خداع القلب بشهوة دنسة وظاهرة ينقضّون بطريقة أخرى ، فيثيرون التخيلات لإخافته ، آخذين شكل النساء والوحوش والزحافات والأجساد الضخمة والجيوش الكثيرة . لا نرتعب من هذه التخيلات ، لأنها ليست بشيء وتختفي بسرعة ، عندما يحمي المرء نفسه بالإيمان وبإشارة الصليب . انهم وقحون جداً و ذوو صفاقة ، لأنهم يهجمون بأسلوب آخر إذا هزموا ، فيدّعون أنهم يتنبأون عما سيحدث بعد أيام ، مظهرين أنفسهم مديدي القامة أي حتى السقف وذوي ضخامة في العرض لكي يخدعوا بالتخيلات أولئك الذين لم ينخدعوا بالأفكار . أما إذا وجدوا النفس مشددة بالإيمان وبرجاء الفكر ، فإنهم يطلبون مساعدة رئيسهم .

٢٤ ـ ثم قال أنطونيوس : إن الشياطين تظهر غالباً على هذا النحو ، كما كشف الرب لأيوب بقوله : « عيناه كهدب الصباح ، من فمه تخرج مصابيح مشتعلة . وشرار نار يتطاير منه . من منخريه يخرج دخاناً من قدر منفوخ أو من مرجل . نَفَسُه يشعل الجمر ، واللهيب يخرج من فمه » (أيوب ٤ : ١٨ ـ ٢١) . هكذا يظهر رئيس الشياطين ، كما قلت سابقاً ، مرعباً ومتكلماً بفخر واعتزاز ، كما أدانه الرب حين قال لأيوب « يحسب الحديد كالتبن ، والنحاس كالعود النخر » (أيوب ٤١ : ٢٧) . « يحسب البحر كأنه حمام ماء ، وقعر الهاوية كأنه أسير له ، واللجة كأنها ممر له » (أيوب ٤١ : ٢٤ ـ ٢٥) . قال على لسان النبي: « قال العدو : أتبعهم فألحقهم » (خروج ١٥ : ٩) وقال على لسان نبي آخر: « سأقبض بيدي على المسكونة كلها ، مثلما أقبض على العش ، وسأرفعها كما يرفع المرء البيض المهجور » (أشعياء ١٠ : ١٤) . هذه الأمور يحاولون أن يفخروا بها ، ويعدون بها الذين يتّقون الله ليخدعوهم . لذلك يجب علينا نحن المؤمنين ألاّ نخاف من ظهوراته ، وألاّ نأبه لكلماته ، لأنه كاذب ولا يتكلم بالصدق أبداً . إذ على الرغم من كثرة هذا الإفتخار في الكلام والوقاحة ، فإن المخلص قبض عليه بصنارة كتنّين كبير ، وكدابة وضع

الرسن في فكيها ، وكهارب أوثق منخره بخطام وثقب شفتيه ببُرّة ، فأوثقه الرب كعصفور حتى نسخر منه . ومعه الحيات والعقارب (أنظر لوقا ١٠ : ١٩) كي ندوسها نحن ، والبرهان على هذا هو أننا نعيش ضده . فالذي يزعم انه سيجفّف البحر وسيصبح سيد المسكونة لا يستطيع أن يعيق نسكنا ولا يستطيع أن يعيقني أنا الذي أتكلم ضده الآن . فلنعرض عن أقواله ، لأنه يكذب ، ولنتشجع أمام تخيلاته ، لأنها تكذب أيضاً . وما الضوء الذي يظهر عن طريق التخيلات حقيقياً ، بل هو مقدمة وصورة عن نار جهنم المعدّ له ، أي أنهم يخيفون الناس بما سيعذبون به . ان أشباحه وتخيلاته تظهر وتختفي سريعاً دون أن تسبب أذى لأي مؤمن ، فهي تعطي صورة عن النار التي ستنالها . فلا تخافوا من فنونها ، لأنها تصبح عدماً بنعمة المسيح .

٢٥ ـ الشياطين مخادعة وقادرة على أن تأخذ الشكل الذي تريده . فكثيراً ما تتظاهر وهي مختفية بأنها ترتل ، وبأنها تذكر كلمات من الكتاب المقدس . وأحياناً تردد ما نقرأه وكأنها صدى . وتارة تنهضنا للصلاة ، كي لا ننام ، بل إنها تفعل هذا باستمرار بحيث لا تسمح لنا بالنوم . وطوراً تتخذ شكل الرهبان متظاهرة انها تتكلم بتقوى لكي تخدعنا بهذا الشكل ، فتجرّ الذين خدعتهم الى حيث تريد . لذلك

يجب ألاّ نصغي إليها حينما تنهضنا للصلاة وحينما تنصحنا ألاّ نأكل أبداً وحينما تتظاهر بأنها تتهمنا وتوبخنا في أمور وافقتنا فيها سابقاً . فهي لا تفعل هذا عن تقوى أو عن حقّ ، بل لتقود المستقيمين إلى اليأس ، ولتظهر لهم أن الحياة النسكية غير مفيدة ، فتثير فيهم الإشمئزاز وتجعلهم يظنون بأن الحياة الرهبانية حمل ثقيل ، وبهذا تعيق الذين يعيشونها رغماً عنهم .

٢٦ ـ ان النبي الذي أرسله الله ينظر الى تعسهم قائلا : « ويل لمن يسقي قريبه بغية خداعه بعد أن يسكر » (حبقوق ٢ : ١٥) . هذه الحبائل والأفكار الشريرة تبعد الناس عن طريق الفضيلة . مع أن الشياطين قالت الحقيقة للرب ـ « انك أنت هو ابن الله » (لوقا ٤ : ٤١) ـ فهو أغلق أفواهها وأعاقها عن الكلام خوفاً من أن تزرع الشر مع الحق ، ومن أن نألفها ونصغي إليها ، حتى لو نطقت بالحق . فمن غير اللائق ان نتعلم من الشيطان الذي لم يحافظ على مركزه ، والذي اعتقد بأمور بدل أمور أخرى ونحن نملك الكتاب المقدس والحرية التي تنبع من المخلص . وحتى عندما يستخدم كلمات الكتاب يمنعه الرب : « قال الله للخاطىء : لماذا تتحدث عن حقي ويتلفظ لسانك بعهدي ؟ » (مزمور ٤٩ : ١٦) . ان الشياطين

تستخدم كل الوسائل لخداعنا ، فتتكلم وتثير ضجيجاً وتتنكر وتضطرب لخداع المستقيمين وتخلق ضربات وتضحك بجنون وتصفّر ، وإذا لم يصغ المرء إليها فإنها تبكي وتنوح كمهزومة .

٢٧ ـ ان الرب كإله أكمّ أفواه الشياطين . وبما أننا تلقّنا درساً من القديسين فيجب ان نقتدي بشجاعتهم ، لأنهم عندما رأوا هذه الأمور قالوا : « حينما وقف الخاطىء قبالتي أغلقت أذني ، أذللت نفسي ، ولزمت الصمت عن الخير » (مزمور ٣٨ : ٢ ـ ٣) . وكذلك « كنت كأصم لا يسمع وكأخرس لا يفتح فمه وصرت كإنسان لا سمع له » (مزمور ٣٧ : ١٤ ـ ١٥) . لذلك يجب ألاّ نصغي إليها لأنها غريبة عنّا ، وألاّ نطيعها حتى عندما توقظنا للصلاة أو تتكلم على الصوم . ولننتبه الى الغيرة النسكية دون أن ننخدع بما تفعله بغش ، حتى لو ظهرت أنها تنقضّ علينا أو تهددنا بالموت . فهي ضعيفة ولا تقوى على شيء سوى التهديد .

٢٨ ـ كلّمتكم حتى الآن على الشيطان بإيجاز ، ولا أجد صعوبة في أن أتكلم عليه الآن بتوسّع ، لأن تكرار الكلام هو من أجل امانكم الروحي . بسكنى الرب بيننا سقط العدو وضعفت شياطينه، وأصبح عاجزاً عن تحقيق أي

شيء .لكن بما أنه طاغية وساقط فهو لا يهدأ ، بل يهدد حتى لو كان تهديده بالأقوال فقط . فليصغ كل منّا هذه الأمور في فكره ، فإنه يقوى على احتقار الشياطين . لو كانوا ذوي أجساد مثلنا ، لكانوا قادرين على الزعم بأننا لا نجد الناس عندما يختبئون ، لكن عندما نجدهم نؤذيهم . ونحن أيضاً ننجو منهم عندما نختبىء ، كما أننا نستطيع ان نغلق الباب دونهم . وإذا لم يكونوا كذلك فإنهم يستطيعون أن يدخلوا والأبواب مغلقة ، وان يكونوا حاضرين في الفضاء كله ، وعلى رأسهم إبليس . الشياطين تبتغي الشرّ وتستعد دائماً لإيذاء الناس ، كما قال الرب أن الشيطان أب الشر وقتّال الناس . وطالما اننا نحيا ، وبالأولى اننا نحيا ضدها ، يتضح أنها لا تقوى على شيء ، إذ أن الأمكنة لا تعرقل مؤامراتها . هي لا تنظر إلينا كأصدقاء ، فتشفق علينا ، ولا تحب الخير كي نفعله ، بل هي شريرة وتسعى إلى إيذاء الذين يحبون الفضيلة ويتقون الله . وبما أنها لا تقدر على شيء تلجأ إلى التهديد ، إذ لو كانت ذات قوة لما ترددت في ارتكاب الشر حالا . فهذه هي رغبتها وعلى الأخص ضدنا . نحن الآن اجتمعنا في هذا المكان لنتكلم ضدها ، وهي على يقين بأننا بالقدر الذي نتقدم فيه روحياً تضعف هي . فلو كانت تملك القوة لما تركت مسيحياً واحداً منّا على

قيد الحياة . « ان اتقاء الله مقت للخاطىء » (حكمة سيراخ ١ : ٢٥) . انها تلجأ إلى تجريح نفسها ، لأنها لا تحقق شيئاً من الأمور التي تهدد بها . ولذلك يجب ان نتذكر عدم مخافتها . فلو كانت تملك قوة لما أتت بجمهرة ولما خلقت تخيّلات ولما غيّرت أشكالها ، ولما استخدمت الخيالات . إذ يكفي ان يأتي واحد منها ويفعل ما يريده . بل إن كل ذي سلطان لا يلجأ إلى القتل بالخيال ولا يثير الرعب بالضجيج ، بل يستخدم قوته بسرعة كما يشاء . لكن بما أن الشياطين لا قدرة لها ، فهي تمثل على المسرح مغيّرة شكلها ومرعبة الأطفال بأشباحها وأشكالها ، فيكون ضعفها سبباً لاحتقارها . ان الملاك الحقيقي الذي أرسله الرب ضد الأشوريين لم يكن بحاجة إلى الجماهير ولا إلى ضجيج ولا إلى خيالات كاذبة ولا إلى ضربات ، بل استخدم سلطانه بهدوء وبدون خوف وقتل دفعة واحدة مئة ألف وخمسمئة وثمانين ألف رجل . أما الشياطين التي لا قوة لها فترعب الناس لو بالخيالات .

٢٩ ـ إذا فكر الإنسان في آلام أيوب وتساءل : لماذا حرّك الشيطان كل الأمور وجرّده من ممتلكاته وقتل أولاده وضربه بقرح رديء (أيوب ١ : ١٥ ـ ٢٢ ، ٢ : ١ ـ ٧) ؟

فليعــرف بأن الشيطــان ما كان يملك أية قوة لفعــل هذه الأمور ، لو لم يسمح له الله من أجل امتحانه . وحيث أنه لا يقدر على أي شيء ، طلب السماح من اللـه ، وعندمـا حصل على ذلك فعل ما شاء . من هنا كان العدو مستوجباً الدينونة ، لأنه لا يستطيع أن ينزل الشر بإنسان صدّيق حتى لو أراد ذلك . فلو كان قادراً لما طلب من الله . وبما أنه لم يطلب مرة واحدة بل مرتين ظهر انه ضعيف وغير قادر على شيء . وما فشله ضد أيوب غريباً ، لأنه لو لم يسمح له الله لما استطاع القضاء حتى على حيوانـات أيوب . إذ لم يقـو حتى على الخنازير ، كما كُتب في الإنجيل حينما قال للرب: « فأذن لنا ان نذهب الى قطيع الخنازير » (متى ٨ : ٣١) . إذا كان الشيطـان لا يملك السلطــة على الخنــازير ، فكم بالحري على الذين هم مخلوقون على « صورة الله » .

٣٠ ـ يجـب ، إذن ، أن نخـاف الله وحــده و ان نحتقر الشياطين بلا خوف . بل كلما أكثرت من فعل هذه الأمور ، يجب ان نكثّف نسكنا ضدهـا ، لأن السـلاح الكبـير ضد الشياطين هو حياة مستقيمة وإيمان بالله . فهي تخاف صوم النسّاك وسهرهم وصلواتهـم ووداعتهـم وسكينتهـم وعـدم محبتهم للفضة وكرههم للمجد الباطل ، و اتضاعهم ومحبتهم

للفقراء وإحساناتهم وعدم غضبهم ، وقبل كل شيء إيمانهم بالمسيح . النسّاك يفعلون هذه الأمـور ، لكي لا تخدعهـم الشياطين ، ولأنهم يعرفـون النعمـة التـي وهبهـا المخلص للمؤمنين ضدهم . « ها أنا أعطيكم سلطاناً تدوسـون به الحيّات والعقارب وكل قوة للعدو» (لوقا ١٠ : ١٩).

٣١ ـ إذا ما تظاهرت بالنبوءة ، لا تبالوا بها . فهي تعلن قبل أيام عن الإخوة الذين سنلتقي بهـم بعـد تلك الأيام ، فيأتي أولئـك فعـلا . وهـي لا تفعـل هذا لعـدم مبالاتهـا بالسامعين ، بل لكي تقنعهم فيثقوا بها أكثر . لكن بعد أن يصبحوا ملك أيديها تنقضّ عليهم . لذلك يجب ألاّ ننصت إليها عندما تتنبأ بل يجب ان نفحمها ، لأننا لا نحتاج إليها . فما هو العجب ، ان كانـت ذوات أجسـاد أكثـر خفـة من أجساد الناس ، فتراهم حينما يبدأون السير ، وتسبقهـم في الطريق معلنة قدومهم ؟ هذا ما يقدر أن يتنبأ به أي فارس ، لأنه يسبـق الـذي يسـير على قدميه . فلا نعجـب من هذه المقدرة ، لأنها لا تعرف الأمور التي لـم تحدث . الله وحده هو الذي يعرف كل شيء قبل حدوثه . هي تركض كسارقة لتعلن ما تراه . فإلى كم من الناس تعلن الآن ما يختص بنا ، نحن الذين اجتمعنا ضدها ، فقبـل أن يتـرك الواحـد منّـا

المكان تسرع لتخبر عنه . هذا ما يستطيع ان يقوم به ولد يقوى على الركض بسرعة ، لأنه يسبق الذي يسير ببطء . أعني انه إذا ابتدأ بالسير من طيبة ، أو من أي مكان آخر ، فإنها لا تقدر ان تعرف قبل انطلاقه ما إذا كان سيسير . انها تركض لتعلن عن قدومه قبل وصوله . وهكذا يأتي الرجل بعد أيام . كثيراً ما يعود السائر قبل أن يصل فتكذب الشياطين .

٣٢ ـ أحياناً تثرثر بالطريقة ذاتها حول مياه الأنهار ، أي أنها ترى الأمطار وهي تهطل في مناطق الحبشة ، فتدرك ان المياه ستسبب فيضاناً في النيل . لذلك تركض لتخبر عن الفيضان قبل وصول المياه الى مصر . لو كان الناس يستطيعون العدو مثلها ، لأخبروا عن الأمر . ان حارس (أو مخبر) داود صعد إلى مكان عال فرأى رجلا وهو يقترب أفضل مما رآه الذي كان في الأسفل . لذلك سبق الآخرين وأخبر داود . هذا يعني انه لم يخبر بالأمور التي لم تحدث ، بل بالأمور التي كانت تجري في الطريق وتحدث فيها (صموئيل الثاني ١٨ : ٢٤) . هذه تفضل أن تتعب نفسها وتخبر الآخرين بما يحدث ، حتى تخدعهم . لكن إذا فكرت العناية الإلهية في شيء يتعلق بالماء أو بالمسافرين

ـ وهي تملك القدرة على ذلك ـ تظهر الشياطين كاذبة وتظهر الذين آمنوا بها أنهم مخدوعون .

٣٣ ـ هكذا تأسس سحر الهلينيين ، وهكذا خدعتهم الشياطين . لكن هكذا توقف الضلال أيضاً ، لأن الربّ أتى وأبطل الشياطين مع حبائلها . هي لا تعرف شيئاً من ذاتها ، بل تنقل كاللصوص ما تراه عند الآخرين . وهي تقوى على التخمين لكنها لا تقوى على المعرفة السابقة . لذلك ينبغي ألاّ نعجب بها ، حتى لو تكلمت بالصدق أحياناً . فالأطباء ذوو الخبرة ، عندما يجدون المرض نفسه عند الآخرين يتأملون فيه ويخبرون مسبقاً عنه . هذا ما يفعله أيضاً قوّاد السفن والفلاّحون ، الذين ينظرون إلى حالة الطقس ، فينبئون من خلال خبرتهم ، إذا كان الهواء سيكون عاصفاً أو لطيفاً . فلا يزعم أحد بأن الشياطين تتنبأ بوحي إلهي ، إذ تنطق من خلال خبرتها وتمرّسها . فإذا تنبأت عن بعض الأمور من خلال تخميناتها ، فلا يتعجبنّ أحد منها ولا يصغينّ إليها . فماذا ينتفع الذين يصغون إلى الشياطين ، إذا ما عرفوا المستقبل قبل أيام ؟ لماذا يهتمون بمعرفة المستقبل منها ، حتى لو كانت هذه المعرفة صحيحة ؟ فالمعرفة لن تصنع الفضيلة ولن تكون علامة للخُلق الصالح . فلن يدان أحد منّا ، لأنه يجهل المستقبل ، ولن

يطوّب إذا ما عرفه ، إذ أن المرء سيُحاكم على صونه للإيمان وحفظه للوصايا .

٣٤ ـ فلنعرض عن إعطاء الشياطين أية قيمة ، كذلك يجب ألاّ نتعب في حياة النسك للحصول على نعمة معرفة المستقبل ، بل لإرضاء الله بسيرتنا ، وألاّ نصلّي للحصول على موهبة العلم بالمستقبل ، وألاّ نطلب هذا كأجرة لنسكنا ، بل ليكن الرب متدائباً معنا في انتصارنا على الشيطان . أما إذا اهتمّ أحدنا بمعرفة المستقبل فليطهّر فكره ، لأنني أؤمن بأن النفس المتطهّرة من الأفكار الشريرة والمحافظة على الطبيعة التي خلقها الرب فيها ، تقدر أن تكون رائية أكثر ، وأن تنظر إلى أبعد مما يراه الشيطان . فهي تملك الرب الذي سيعلن لها كل شيء . ان نفس النبي أليشع رأت كل ما سيفعله جيزي وكل القوات الموجودة في الجبل .

٣٥ ـ إذا ما أتتكم الشياطين ليلا وأرادت التحدث عن المستقبل أو قالت : نحن ملائكة ، فلا تنصتوا إليها ، لأنها كاذبة . وإذا ما مدحت نسككم وطوّبتكم فلا تقتنعوا بما تقوله لكم ولا تنصتوا إليها . بل اختموا أنفسكم وبيوتكم بإشارة الصليب وصلّوا ، ثمّ انظروا إليها فتجدوها انها تختفي . فهي تخاف من إشارة الصليب لأن المخلص عرّاها

من كل قوة مشهّراً إياها . لكن إذا ما أصرّت على إزعاجكم بوقاحة أشد ، آخذة بالرقص وتغيير الشكل ، فلا تخافوا ولا تصغوا إليها كصالحة . إذ من السهل تمييز مظاهر الأرواح الشريرة عن الأرواح الصالحة ، لأن الرب يعطينا قوة هذا التمييز . ما ظهور الأرواح الصالحة مرعباً ، لأنها لا تجد في ظهورها من تتصارع معه ومن يصرخ ويسمع صوتها (أشعياء ٤٢ : ٢) . ظهور هذه الأرواح هادىء وصامت ، ويخلق فرحاً في النفس وشجاعة . فالرب معها وهو فرحنا وهو قوة الله الآب . أما الأفكار التي تخلقها هذه الظهورات فتبقي النفس غير متزعزعة إلى أن تنيرها من هذا الفرح ، فتعرف ما هي الأرواح التي تظهر لها ، إذ أن الشوق الإلهي وشوق الخيرات الآتية تتملكان النفس ، فتبتغي أن تنضم إليها وأن ترحل معها . إذا كان هناك من يخاف ظهور الأرواح الشريرة ، فهذه الأرواح (الصاحلة) تطرح عنهم الخوف جانباً بالمحبة التي تظهرها ، كما فعل غفرئيل مع زخريا (لوقا ١ : ١٣) ، وكما فعل الملاك الذي ظهر للنسوة عند قبر الرب (متى ٢٨ : ٥) . وعندما ظهر للرعاة قال لهم : «لا تخافوا» (لوقا ٢ : ١٠) . ان خوف أولئك لم يكن نتيجة الجبن ، بل نتيجة اليقين بظهور الملائكة الصالحين ، هذا هو ظهور الملائكة القديسين .

٢٦ ـ أمّا هجوم الأرواح الشريرة وظهورها الخيالي فيرافقه جلبة وضربات وأصوات وصراخ ، كهجوم الأولاد الأشرار واللصوص . فحين ظهورها يسيطر الرعب واضطراب النفس وتشويش الفكر والتهجم وكره النّساك والتهامل والحزن وتذكر الأقرباء وخوف الموت . وفوق ذلك رغبة في الشر وكسل في اكتساب الفضيلة واضطراب في الخلق . إذا رأيتم روحاً واعتراكم الخوف أولا ثم حلّ محله فرح لا يعبّر عنه وحماس وشجاعة و إقدام ومحبة لله ، فتشجعوا وصلّوا للرب . هذا الفرح و استقرار النفس يظهران قداسة الملاك الحاضر. وهكذا أحسّ ابراهيم بالفرح الروحي عندما رأى السيد و ارتكض يوحنا السابق من الفرح عندما تكلمت والدة الإله مريم (لوقا ١ : ٤١) . لكن إذا ما رأينا أرواحاً وأثارت اضطراباً وضربات خارجية وتخيلات دنيوية وتهديداً بالموت وكل ما ذكرناه سابقاً، فلنعرف بأن هذا هجوم أرواح شريرة.

٣٧ ـ وهذه أيضاً علامة لكم : اعلموا بأن الرعب الذي يثار في النفس هو دليل على وجود الأعداء ، لأن الشياطين لا تطرح خوف الظهورات جانباً ، كما فعل الملاك غفرئيل مع مريم وزخريا والذي ظهر للنسوة عند القبر ، بل إنها تزيد

من ظهوراتها عندما ترى الذين يرتعبون خوفاً ، لكي تكثر من خوفهم . وعندما تخضعهم تهزأ منهم قائلة : انحنوا و اسجدوا . هكذا خدعت الوثنيين لتجعلهم يؤمنون بآلهة كاذبة ، غير أن الرب لم يسمح للشيطان بأن يخدعنا ، إذ وبّخه عندما ظهرت له الرؤية في البرية فقال له : « ابتعد عنّي يا شيطان ، لأن الكتاب يقول : للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » (متى ٤ : ١٠) . لذا يجب أن نحتقر دوماً المضل أكثر فأكثر ، لأن الرب قال هذا الكلام من أجلنا . عندما ستسمع الشياطين من فمنا الكلمات ذاتها ، ستُهزم بقوة، هاربة من وجه الرب الذي وبّخها على هذا النحو.

٣٨ ـ لا نفتخر بأننا نطرد الشياطين ولا نتبجح بأننا نشفي المرضى ، ولا نعجب ممن يملك سلطان طرد الشياطين ولا نحتقر من لا يملك هذا السلطان . لكن ليعرف كل منّا نسك الآخر كي يقتدي به وينافسه أو لكي يصلحه . ففعل العجائب ليس منا ، بل من المخلص . لذلك قال الرب لتلاميذه: «لكن لا تفرحوا بأن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بأن أسماءكم مكتوبة في السماوات » (لوقا ١٠ : ٢٠) . فكتابة أسمائنا في السماوات إشارة إلى فضيلة حياتنا ، بيد أن طرد الشياطين موهبة معطاة من الرب .

لذلك يقول للذين لا يفتخرون بفضيلتهم ، بل بالآيات التي يفعلونها: «يا رب أما باسمك نطقنا بالنبوءات؟ وباسمك طردنا الشياطين ؟ وباسمك عملنا العجائب الكثيرة ؟ فأقول لهم: ما عرفتكم مرة » (متى ٧ : ٢٢ - ٢٣) ، لأنه لا يعرف طريق الضالين . وكما قلت آنفاً ، ينبغي أن نصلّي على الدوام كي نكتسب موهبة تمييز الأرواح ، كي - كما كتب - « لا نصدق كلّ روح » (١ يوحنا ٤ : ١) .

٣٩ - كنت أودّ أن أصمت وألاّ أورد شيئاً عن حياتي مكتفياً بما قلت ، لكن لكي لا تظنوا بأن ما قلته سرد عادي ، بل من خبرتي الحياتية ومن حقائق ثابتة ، فسأكمل الكلام حتى لو بدوت أحمق . وأقول كم من حبائله شاهدت بأمّ عيني . فالرب الناظر إلى ضميري النقي يعرف أنني لا أقول هذه من أجل نفسي ، بل من أجل محبتكم ونصحكم . كم مرةٍ طوّبتني الشياطين ، لكنني باسم الرب أبدتها ! كم مرةٍ تنبأت عن فيضان النيل ، لكنني كنت أقول لها لِمَ هذا الإهتمام بالأمر ! أتت مرة مهدّدة فأحاطت بي كالجنود المدججين بالسلاح . ومرة ملأت البيت بالأحصنة والوحوش والزحافات ، أما أنا فكنت أرتل: «هؤلاء

بالمركبات وهؤلاء بالخيول ، أما نحن فباسم الرب إلهنا نتعظّم » (مزمور ١٩ : ٨) . بهذه الصلوات أبعد الرب الشياطين عنّي . وأتت مرة في الظلام حاملة نوراً خيالياً وقالت : أتينا لننيرك يا أنطونيوس . فأغلقت عينيّ وصلّيت فانطفأ نور الأشرار للحين . بعد أشهر أتت ترتل وتتفوّه بآيات كتابية ، «لكنني كنت كأصمّ لا يسمع» (مزمور ٣٧ : ١٤) . مرة أخرى هزّت الدير كله ، أمّا أنا فكنت أصلّي محافظاً على عقلي من التزعزع . بعد ذلك أتت تصفّق وتصفّر وترقص . لكن عندما بدأت أصلّي ، وعندما اضطجعت وأنا أرتل في داخلي ، ابتدأت تنوح وتبكي ، وكأنها فقدت قوتها . وأنا مجّدت الرب الذي أخفق قوتها ، وأظهر وقاحتها وجنونها .

٤٠ ـ ظهر مرة شيطان طويل القامة جداً بعظمة وتجرأ على القول : أنا هو قوة الله ، أنا هو العناية الإلهية . ماذا تريد أن أعطيك ؟ أما أنا فذكرت اسم المسيح وبصقت عليه محاولا لطمه ، و اعتقد بأنني لطمته . وحالما سمع الطويل القامة اسم المسيح اختفى مع كل من معه . وكنت مرة أخرى صائماً فأتى إليّ ذلك المخادع كراهب يحمل في يديه خبزاً خيالياً ونصحني قائلاً : كُلْ وكفّ عن العذابات

الكثيرة ، أنت إنسان وسوف تمرض . لكنني أدركت حيلته ، ولذلك نهضت للصلاة . لكنه لم يحتمل فاختفى للحين وبدا كأنه يخرج من الباب كالدخان . كم مرةٍ أظهر لي في الصحراء ذهباً خيالياً حتى ألمسه وانظر إليه . لكنني كنت أرتل من كل القلب وذلك كان يذوِّب من شره . كم مرةٍ جرّحني وأنا كنت أردد « لن يفصلني شيء عن محبة المسيح » (رومية ٨ : ٣٥) . فكان كل شيطان يجرّح الآخر . لم أكن أنا الذي أوقفته وأبطلت عمله ، بل الرب القائل : « رأيت الشيطان يسقط من السماء مثل البرق » (لوقا ١٠ : ١٨) . يا أولادي ، انني أتذكر دائماً قول الرسول « جعلت من نفسي مثالا » (١ كور ٤ : ٦) ، كي لا تتهاونوا في نسككم ، وكي لا تخافوا من تخيلات الشيطان وجيشه .

٤١ ـ صرت أحمق وأنا أقص عليكم هذه الأمور . لكن تقبَّلوها من أجل أمانكم وشجاعتكم وصدقوني فإنني لا أكذب . قرع شخص باب الدير مرة ، ولما خرجت وجدت شخصاً طويلاً وضعيفاً. عندما سألته من أنت ؟ قال أنا هو الشيطان . ولما سألته لماذا أتيت إلى هنا ؟ قال : لماذا يلومني جميع الرهبان والمسيحيون باطلا ؟ ولماذا يلعنوني كل الوقت ؟ عند ذلك قلت له : لماذا تزعجهم ؟ قال : انا لا

أزعجهم لأنني ضعيف . وهم الذين يجعلون أنفسهم مضطربة ، ألم يقرأوا : «فنيت سيوف العدو كل الفناء . دمّرت مدنهم » (مزامير ٩ : ٦) . لا مكان لي ولا سلاح ولا مدينة . الناس اعتنقوا المسيحية في كل مكان ، والصحراء امتلأت بالرهبان . يجب أن يحافظوا على أنفسهم ، و ألاّ يلعنوني باطلا . حينذاك اندهشت من نعمة الرب وقلت له : مع أنك تتكلم دائماً بالكذب ، فإنك قلت الآن الحقيقة دون أن تريد ، لأن المسيح أتى حقاً وجعلك ضعيفاً وبانتصاره عليك عرّاك . حالما سمع اسم المخلص لم يحتمل الغليان وصار غير مرئي .

٤٢ ـ طالما أن ابليس نفسه يعترف بأنه لا يقوى على شيء، فمن الواجب ان نحتقره مع شياطينه أيما احتقار. ان حبائله مع حبائل كلابه عديدة ، لكننا نحن العارفين ضعفه نقوى على احتقاره . ولذلك ينبغي ألاّ نخسر شجاعتنا وألاّ ترتعب نفوسنا وألاّ تثار في دواخلنا مخاوف فنقول : أترى سيأتي الشيطان ويقضي علينا ؟ هل سيقبض عليّ ويرميني إلى الأسفل ؟ أم أنه سيظهر فجأة ويختفي ؟ لا ندعنّ أفكاراً كهذه تدور في ذهننا ولا نحزن وكأننا هالكون . بل لنكن ذوي شجاعة وفرح وكأننا مُخَلَّصون . ولنفكر في أن الرب

الذي أضعفهم وضيّق عليهم الخناق هو معنا دائماً . لنتذكر ولنضع في فكرنا أن أعداءنا لن يفعلوا شيئاً ، ما دام الرب معنا . عندما تأتي الشياطين إلينا تعاملنا حسب حالتنا النفسية مكيّفة التخيلات التي تثيرها وفق أفكارنا . فحينما تجدنا خائفين ومضطربين تهجم مثل اللصوص الذين يجدون المكان بلا حراسة ، وتفعل بمغالاة ما تجدنا مفكرين فيه . وإذا ما وجدتنا خائفين وجبناء ، فإنها تكثر من التخيلات والتهديدات كي تعذّب النفس الشقية . أما إذا وجدتنا فرحين مع الرب ومفكّرين في الصالحات الآتية وواضعين في فكرنا كل ما يفرح الرب ومؤمنين بأنها لا تملك قوة على المسيحيين فإنها تبتعد خازية . هكذا عندما رأى العدو أيوب مُحصّناً جداً هرب من أمامه (أيوب الفصل الأول والثاني) ، لكنه وجد يهوذا عارياً من هذه الأفكار فأسره (يوحنا ٢٣ : ٢٧) . كيما نزدري بالعدو يجب أن نتذكر دائماً الإلهيات وأن تكون نفسنا فرحة ، فنرى فخاخ العدو تعلو كالدخان . ان الشياطين تهرب بدل أن تطاردنا فهي جبانة وتنتظر دائماً النار المعدة لها .

٤٣ ـ لتكن هذه العلامة عندكم كي تتشجعوا . فكلما ظهر للواحد منّا خيال لا يخافنّ ، بل ليسل من أنت ؟ ومن